

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

كلية الآداب والحضارة الإسلامية



قسم اللغة العربية

ملخص محاضرات مادة أدب الهامش

موجهة لطلبة السنة الثالثة ليسانس

أدب عربي

د عصام بن شلال

1- مفهوم أدب الهامش:

الأدب الهامشي أو الموازي هو نقيض الأدب المركزي الرسمي الذي يعبر عن أفكار السلطة السائدة ويدافع عن إيديولوجيتها المهيمنة، في حين يمثل أدب الهامش أفكار الفئات الهامشية والأقليات الإثنية داخل مجتمع ما، كما يصنف الأدب المعارض للسلطة مهما كان جنسه ضمن أدب الهامش الذي يظل مفهومه زئبقي الماهية ومتغيرا بتغير موضع المركزي والهامشي في دولة ما، لاسيما داخل الدول التي تركز مبدأ حرية التعبير وتفتتح على أفكار الأقليات فإنه لا يكون عندها ما يعرف بثنائية (المركز/والهامش) عدا ما يفرضه النسق البلاغي السائد من الاهتمام بجنس أدبي دون غيره من الأجناس، كالاتمام بالرواية مثلا..

أما الأنظمة الشمولية والديكتاتورية المستبدة فهي التي يتجلى داخل نسقها الثقافي والفكري السائد ما يُعرف بالهامش والمركزي؛ لأنها تركز لخطاب إيديولوجي واحد يمجّد أفكارها ويدافع عن نظامها السياسي والاقتصادي والثقافي والديني خاصة، إذ لا يمكن لكاتب أن يروج لدين أو لمذهب مختلف داخل نظام يتبنى ديناً ومذهباً معيناً وإلا فمصير الأدب الذي يؤلفه سيكون الإحالة على الهامش، وكذلك لا يمكننا أن نتصور أدبياً ينتمي للاتحاد السوفياتي مثلاً أن يكتب أفكاراً تمجد الرأسمالية والبرجوازية لأن هذا سيعد انتحاراً أدبياً وإحالة على الهامش، هذا إن وجد دار نشر تتجرأ على نشر ما ألفه من أدب خارج على النسق الإيديولوجي المهيمن آنذاك.

وهكذا يمكننا تحديد أدب الهامش من خلال التركيز على مفهوم الهيمنة، فالأدب الهامشي هو الأدب الذي لا يلتزم بالأنساق الثقافية والبلاغية واللغوية والإيديولوجية والدينية السائدة في نظام ما، وهو "كل أدب يُنتج خارج المؤسسة، سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو أكاديمية"¹، ولذلك تسعى النخب المكرسة للسلطة الغالبة إلى تهميشه، وإغفال ذكره، وذلك بتسليط الأضواء على الآداب التي تعبر عن ثقافة السلطة.

2- خصائص أدب الهامش:

¹ محمد عاطف غيث: قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، دط، ص52.

يعد أدب الهامش أدبا من الدرجة الثانية، أقل شأنًا من الأدب الرفيع، في اللغة والشكل والمضمون والخصائص الفنية، وسوف أحاول تحديد خصائصه فيما يلي:

أ. **اللغة:** يتشارك الأدب الهامشي مع الأدب المركزي في نفس اللغة أحيانا خصوصا في الأنواع الأدبية الفصحى مثل (أشعار الصعاليك، وأشعار النساء والجواري، وأدب السير والرحلات قديما، الرواية البوليسية، وأدب الطفل، وأدب الخيال العلمي حديثا)، وفي أحيان أخرى يُكتب الأدب الهامشي باللغة العامية (كالشعر الشعبي، والزجل، والأدب الشعبي بكل أنواعه...)، وعلى العموم فإن لغة أدب الهامش تتمرد في كثير من الأحيان على لغة الأدب الرفيع لأنها تعبر عن ثقافة العوام وطرق تعبيرهم...

ب. **الشكل:** لا يلتزم الأدب الهامشي بالأشكال والنماذج الأدبية المهمة، وقد نجد ذلك مثلا في عدم التزام الصعاليك بنموذج القصيدة الجاهلية التي كانت تنتجها القبيلة والنظام السائد آنذاك، فكان شعر الصعاليك تعبيرا عن التمرد على تلك الأنساق السائدة، والرواية البوليسية كذلك لا تلتزم بالترتيب المنطقي للسرد الموجود في الروايات السائدة، لأنها قد تنطلق من الخاتمة حتى تقودك إلى البداية، والشيء نفسه نجده في الأنواع الأدبية الهامشية الأخرى التي تأبى الالتزام بالأشكال والنماذج الأدبية الرسمية والنخبوية...

ج. **المضمون:** لا بد أن تكون المواضيع التي يطرحها أدب الهامش مختلفة تماما عن تلك المواضيع المطروحة في الأدب الرسمي، بحيث يهتم الأدب الهامشي بالحياة الواقعية التي يعيشها الناس البسطاء الذين همشتهم الآداب الرسمية اللاهثة وراء المشهورين والطبقة الأرستقراطية ولا تهتم بهموم الشعوب ولا بأحلام البسطاء، ولذلك لا تسمح ثقافة السلطة لهذه الأصوات بالبروز حتى لا تكون هناك مساواة ولا تعاطف مع هذه الطبقات المسحوقة، ولهذا كانت المواضيع التي يطرحها الصعاليك صورة عن معاناتهم مع الفقر والجوع مختلفة عن الأشعار الصادرة عن القبيلة التي كانت تمدح الأسياد والملوك ولا تذكر أوجاع العامة وهمومهم اليومية.

د. **الخصائص الفنية:** إن أدب الهامش يعبر بشكل أكثر عفوية من الأدب الرسمي، ولا بد أن ينتج عن هذا تباين في الخصائص الفنية لكل أدب، فإذا كان الأدب الرسمي يراعي الأنساق البلاغية

والفنية والأسلوبية السائدة ويسعى للالتزام بها وتحقيقها في نصوصه فإن الأدب الهامشي لا يكثر كثيرا بتلك الأنساق السائدة بقدر ما يهتم بالتعبير عن أفكاره باللغة المفهومة لدى عامة الناس مراعيًا الشرط التداولي دون تكلف لغويًا ولا تصنع بلاغيًا...

3- نماذج عن أدب الهامش:

سوف نتحدث عن بعض النماذج الأدبية التي يمكن تصنيفها في خانة أدب:

أ. **شعر الصعاليك:** كلمة الصعلوك تعني الفقير في أصلها اللغوي ثم حُملت بعد ذلك بمعاني سلبية في الثقافة كلها تدل على الاحتقار والازدراء، والصعاليك هم أولئك الذي يمثلون الطبقة الاجتماعية الثائرة على نظام القبيلة الطبقي والبورجوازي بامتياز بحيث يزداد الغني غنا ويزداد الفقير فقرًا، ولأن غردوا خارج سرب القبيلة ولم يعبروا عن الأنساق البلاغية والاجتماعية والسياسية السائدة آنذاك فقد تم تهميش شعرهم ولم يعتبرهم النقاد من الشعراء الفحول رغم جودة أشعارهم.

ب. **الأشعار السياسية المخالفة للنظام السائد:** في العصر الأموي مثلاً تم تهميش الأشعار التي كان ينتجها الخوارج والشيعة وغيرهم من الأحزاب السياسية المناهضة للخلافة الأموية، فلم تكن أشعارهم تُداول في المجالس الأدبية ولا يتم الترويج لها من قبل الرواة الذين كانوا يروون الأشعار التي كان فيها مدح للخلفاء والأمراء الأمويين، والأمر نفسه كان معمولاً به في الخلافة العباسية بحيث يتم الترويج للأشعار التي تؤيد السلطة السائدة، ولم تكن لتتحقق لشعراء من أمثال أبي نواس أو أبي تمام والبحثري والمتنبي شهرة لو لم يمدحوا الطبقة الحاكمة، أما الشعراء من أمثال عمر بن أبي ربيعة وذو الرمة والكميت فلم يصنفوا مع الشعراء الفحول لأنهم قصروا أو امتنعوا عن مدح الطبقة الحاكمة في العصر الأموي، أما الشاعران: ابن الرومي ودعبل الخزاعي فلم يعبأ بشعرهما الرواة ولا النقاد حينئذ لأنهم كان يهجون الطبقة الحاكمة في العصر العباسي...

ج. **أدب العوام:** لم يحظ الأدب الذي كان يتداوله العوام باهتمام النخبة من النقاد والبلاغيين، وذلك كان حظ الزجل والسير الشعبية والقصص المتداولة كألف ليلة وليلة وغيرها من فنون القول التي كانت ترضي الذوق العام، لأن النخب كانت تسلط الضوء على الأدب الرفيع الذي يراعي ذوقها الخاص، فمثلما هنالك طبقة اجتماعية هنالك أيضا طبقة لغوية وبلاغية كانت تفرض نمطا مهيمنا على الساحة الثقافية في نظام ما.

د. **أدب الطفل:** لأن طالما هُمش الأدب الموجه للأطفال من قبل النخب لأنه يخاطب فئة عمرية محددة، ولا يمكنه أن يحمل أفكارا عميقة ولا فلسفية كالتي يحملها الأدب الموجه للكبار، ورغم اعتناء الباحثين والأكاديميين بهذا النوع من الأدب نظرا لأهميته القصوى في بناء هوية الطفل فإنه يظل مصنفا ضمن أدب الهامش لأنه يخاطب فئة عمرية محددة، وهذا رغم النجاح الكبير الذي حققته القصص والروايات التي تدخل في خانة أدب الطفل ولكنها للصغار والكبار مثل رواية هاري بوتر التي تحقق نجاحا كبيرا على مستوى المبيعات ولكن هذا لا يجعلها منافسة للروايات المهمة على المشهد الثقافي كروايات غابرييل غارسيا ماركيز، ومارغريت أتوود وخوسي ساراماغو وغيرهم...

هـ. **الرواية البوليسية:** لم تكن كثرة المبيعات يوما مقياسا لنخبوية الأثر الأدبي، فالنقاد على هذا الأساس قد يُقدرون رواية نخبوية تتحقق فيها شروط الرواية وعتبات النص على حساب رواية بوليسية تحقق ملايين المبيعات، ولهذا لم تحز الرواية الشهيرة آغانا كريستي على جائزة نوبل للآداب رغم ملايين المبيعات التي تحققها رواياتها البوليسية الكثيرة، ورغم كثرة قراء الأدب البوليسي فإنه ظل أدبا هامشيا بالنسبة للنخبة التي ترى أن الرواية لا يجب أن تقتصر في أحداثها على مغامرات محققي الشرطة الذين يهدرون كل صفحات الرواية في حل لغز جريمة ما، وأعتقد أن انغلاق الأدب البوليسي على ذاته هو الذي قصر به عن أن يكون أدبا مركزيا وذلك منذ أسس الكاتب الأميركي إدجار آلين بو لهذا النوع من الأدب.

و. **الأدب العجائبي:** رغم أن الناقد ترفيتان طودوروف كان أول من خصص لهذا النوع الأدبي كتابا سنة 1970 غير أن الأدب العجائبي ظل معدودا في خانة أدب الهامش، باعتباره أدبا موجها للتسلية والمبالغة في الخيال والتعجيب الذي يخلق الدهشة، ليظل العجائبي نوعا

أديبا مناقضا للأدب الواقعي الذي احتل مركز اهتمام النخبة، رغم اهتمام الدارسين به مؤخرا من أمثال كمال أبو ديب وخالد التوزاني فإن الصدارة تبقى للفن الروائي الواقعي..

4. مراجع:

- يوسف عليمات: جماليات التحليل الثقافي - الشعر الجاهلي نموذجا.

- عبد الفتاح كيليطو: الأدب والغرابية.

- عبد الله الغدامي: حكاية سحارة.

- علي الوردي: أسطورة الأدب الرفيع.

- كمال أبو ديب: مدخل إلى الأدب العجائبي.

- بيتر هنت: مقدمة في أدب الطفل.